



مملكة متسعة الجوانب طولاً وعرضاً (Getty)

قوله إن هذه المدينة «بناها بركة خان (حفيد هولوكو) على شط نهر توران (أي الأورال)، وهي في أرض سخية بغير سور، ودار الملك بها قصر عظيم، على عليائه هلال ذهب قنطاران بالمصري، ويحيط بالقصر سور به أبراج مساكن لامراته، وبهذا القصر مشتاهم. وهذا النهر يكون قدر النيل ثلاث مرات أو أكثر، وتجري به السفن الكبار تسافر إلى الروس والصقلب (السلاف)، وأصل هذا النهر أيضا من بلاد الصقلب».

ويتابع: «وهي (يعني سراي) مدينة كبيرة ذات أسواق وحمامات ووجوه مقصودة بالأجلاب، في وسطها بركة ماؤها من هذا النهر، يستعمل ماؤها للاستعمال، وأما شربهم فمن النهر، يستقى لهم في جرار فخار، ويصف على العجلات، وتجر إلى المدينة، وتباع بها، ويُعدها عن خوارزم نحو شهر ونصف، وبينها وبين سراي مدينة وحق، ومدينة قتلوكت، ودينارهم رائج عنه ستة دراهم».

أما حاصلات وأقوات مدينة سراي فيقول الترجمان الخوارزمي: «القمح والشعير والدخن، ويسمى عندهم الأزرن، والماش، والجاورس، وهو شبيه بحب الخرسيم وليس يباع عندهم هذه الحبوب إلا بالرطل، يقال كل حمل حمار بكدا، وحمل الحمار عندهم مائة رطل، بهذا الرطل، والسعر المتوسط للقمح بدينارين ونصف، وكذلك الماش والشعير بدينارين، وكذلك الدخن، وكذلك الجاورس أو أزيد، والغالب أن يكون سعره قياس سعر القمح، وسعر الشعير واللحم الضاني على السعر المتوسط في كل ثلاثة أرطال بدرهم».

أما الفواكه فيقول إن بها جميع أنواع الفواكه إلا النخل، والزيتون، وقصب السكر، والموز، والأترج، والليمون والنارخ، ويضيف أيضا أن فيها من أنواع الطير والوحش، وبها الغزلان كباراً جداً، يكون الغزال قدُ بقر الوحش. وكذلك بها معدن يخرج منه أحجار يعمل منها قدور، تقيم القدرة نحو ستين سنة، ولا يتغير.

#### السلطان أوربك ونسأوه

وينقل العمري عن تاجر يدعى عمر بن مسافر قوله: «إن هذا السلطان أوربك غير ملتفت من أمور مملكته إلا إلى جمليات (أي عموميات) الأمور، دون تفصيل الأحوال، فيقع بما حُمل إليه، ولا يفحص عن وجوهه في القبض والصرف، وإن لكل امرأة من خواتينه جانباً من الحمل، وهو يركب كل يوم إلى امرأة منهن يقيم ذلك اليوم عندها، يأكل في بيئها، ويشرب، وتلبسه بذلة قماش كاملة، ويخلع التي كانت عليه، على من يتفق ممن حوله، وقماشه ليس بفائق الجنس، ولا غالي الثمن، وهو مسلم، حسن الإسلام، متظاهر بالديانة، والتمسك بالشرعية، محافظ على إقامة الصلاة، ومداومة الصيام مع قربه من الرعايا والقاصدين إليه، وليست يده بمبسوطة بالعباء، ولو أراد هذا لما وفي له به دخل بلاده، وغلب رعاياها أصحاب عمد في الصحراء، أقواتهم من مواشيهم من الخيل والبقر والغنم، والزرع عندهم قليل، وأقله القمح والشعير، وأما الفول فلا يكاد يوجد، وأكثر الموجود عندهم من الزروع، والدخن منه أكثهم، وعليه فيما يخرج الأرض كلهم، والأسعار في جميع هذه المملكة رضية إلى غاية».

ويشير العمري إلى نساء هذه المملكة ومشاركتهن الرجال في الحكم، وإصدار الأوامر، تماماً كما كان عليه الأمر في بغداد ذلك الزمن حين كانت الخاتون بنت جوبان، زوجة السلطان المغولي المسلم أبو سعيد بهادر بن خدابنده، تتحكم في أمور المملكة وقراراتها، حيث يقول: «إننا ما راينا في زماننا، ولا سمعنا عمن قارب زماننا أن امرأة تحكمت حكمهما، وقد وقفت على كثير من الكتب الصادرة عن ملوك هذه السلاذ من عهد بركة وما بعده، وفيها وافقت آراء الخواتين (أي السيدات) والأمرء على كذا أو ما يجري هذا المجرى».

### تيسر خلف

تأسست جمهورية كازاخستان بحدودها الحالية قبل مائة عام تقريباً، ولكنها قبل ذلك بألف عام كانت مقر اتحاد بين قبيلتين تركيتين عظيمتين هما القبجاق والكومان، وسبب اتحادهما، على الأرجح، هو سيطرتهما على طريق الحرير الذي كان يؤمن للقبائل البدوية التركية في أواسط آسيا مصدر دخل أساسياً، بعد انهيار مملكة الخزر الشهيرة. ولكن هذا الاتحاد قضى عليه هولوكو حين احتاح العالم في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي، ومع ذلك، احتفظت هذه البلاد باسم مملكة القبجاق حتى بعد أن حكمها المغول، إلى أن أصبح اسمها بلاد خانات الكازاخ، ثم كازاخستان.

وقد حفلت المصادر الجغرافية العربية بالكثير من النصوص الرحلية والوصفية لهذه البلاد مترامية الأطراف، والتي كانت قد مدت نفوذها قبل الغزو المغولي بقرون إلى جبال القوقاز وشعوبها القديمة، كالشركس والأرمن والكرج. ومن هذه المؤلفات ما جمعه الجغرافي دمشقي ابن فضل الله العمري عن هذه البلاد من معلومات استقاها من شهود عيان زاروها، وحدثوه عنها. وعلى الأرجح؛ فإن مننع اهتمامه بها أنها موطن سلاطين المماليك الذين جلبوا إلى ديار الإسلام عبيداً من بلاد القوقاز، قبل أن يعتنقوا الإسلام، ويعتقوا ويصبحوا ملوك البلاد والعباد. ويحدثنا العمري نقلاً عن الشيخ نجم الدين بن الشحام الموصلي عن أن هذه المملكة متسعة الجوانب طولاً وعرضاً، كثيرة الصحراء، قليلة المدن، وبها عالم كثير، لا يدخل تحت حدّ، وليس لهم كبير نفع لقلّة السلاح وريادة الخيل». ويضيف «أرضهم سهلة قليلة الحجر لا تطيق خيل، ربيت فيها الأوعار، فلهذا يقلّ عناء أهل هذه المملكة في الحروب، وليس ملوكهم عظيم عناية بالأوضاع، وترتيب سلطان هذه البلاد في أمور جيشه وسلطانه ترتيب مملكة العراق والعجم، في عدة الأمراء والأحكام والخدم».

#### العاصمة سراي

ويعد أن يخبرنا بأن ملك هذه البلاد المتسعة في العام 1330م كان يدعى السلطان أوربك؛ يقول إن العاصمة تدعى سراي، و«هي مدينة صغيرة بين رمل ونهر، وقد بنى بها سلطانها القائم بها الآن أوربك خان مدرسة للعلم، وهو معظم لجانب العلم وأهله». ومدينة سراي المقصودة هنا هي سراي جوك الحالية عاصمة خانية القبيلة الذهبية الواقعة غربي كازاخستان على نهر الأورال، قبل أن يصب في بحر قزوين.

وحول مدينة سراي المذكورة، ينقل العمري عن عبد الرحمن الخوارزمي الترجمان

حفلت المصادر الجغرافية العربية بالكثير من النصوص الرحلية والوصفية لكازاخستان، والتي كانت قد مدت نفوذها قبل الغزو المغولي بقرون إلى جبال القوقاز وشعوبها القديمة، كالشركس والأرمن والكرج. ومن هذه المؤلفات ما جمعه الجغرافي الدمشقي ابن فضل الله العمري

# كازاخستان القديمة

## بلاد القبجاق كما وصفها العمري قبل ثمانية قرون

### سيبيريا

يقول حسن الرومي إن بلاد السبر، أي سيبيريا، تقع ضمن مملكة المغول: «وبلاد السبر وجولمان مضافة إلى باشغرد، (أي البشكير). وفي بلاد باشغرد قاض مسلم معتبر، وبلاد السبر وجولمان شديدة البرودة لا يفارقها الثلج مدة ستة أشهر، لا يزال يسقط على جبالهم وبيوتهم وبلادهم، ولهذا تقل مواشيهم عندهم، وهم سكان قلب الشمال، والواصل عندهم وإلبهم من الناس قليل، والأقوات عندهم قليلة، ويحكي عنهم أن الإنسان منهم يجمع عظام أي حيوان كان، ثم إنه يغلي عليها بقدر كفايته ثم يتركها وبعد سبع

مرات لا يبقى فيها شيء من الدهن. وهم مع ضيق العيش ليس في أجناس الرقيق أنعم من أجسامهم، ولا أحسن من بياضهم، صورهم تامة الخلقة في حسن وبياض ونعومة عجيبة، زرق العيون». ويضيف أن التجار لا يتعدون مدينة بلغار، يسافرون إلى بلاد جولمان، وتجار جولمان يسافرون إلى بلاد بوزغزه لأنها في أقصى الشمال، وليس بعدها عمارة غير برج عظيم من بناء الإسكندر على هيئة المنارة العالية، وليس بعده مذهب إلا الظلمات، وهي صحارى وجبال لا يفارقها الثلج والبرد، ولا تطلع عليها الشمس ولا ينبت فيها نبات، ولا يعيش فيها حيوان أصلاً.



### بلاد مترامية الأطراف

يعود العمري للإشارة إلى أن هذه المملكة المغولية هي بلاد القبجاق القديمة، ويقول في ذلك:«لما فاضت عليها التتار صارت القبجاق لهم رعايا، ثم خالطوهم وناسبوهم، وغلبت الأرض على الجبلية والأصل، فصار الكل كالقبجاق كأنهم جنس واحد لسكن المغل بارض القبجاق ومصاهرتهم لهم، وبلادهم في أرضهم، وهكذا طول المكث في كل بلد وأرض بجوؤز التجايز إليها، وبحول الغرائز إلى طباعاها كما قدما ذكره، وقد يقل اختلاف الألوان ويزيد لسبب آخر غير البلدية». وينقل العمري عن التاجر كثير الأسفار حسن الرومي قوله إن حدود هذه المملكة تبدأ من جهة جيجون وباركند، وجند، وسراي ووصولاً إلى طرلو عشرة وسقسين، والكل، وبلغار على بحر القسطنطينية، وهو البحر الأسود. ويضيف حسن الرومي أن «مدينة باكو هي إحدى مدن إقليم شروان، وعندها الباب الحديد الذي يسميه الترك دمرقيو، ومن الباب الحديد الذي هو عبارة عن مدينة باكو إلى حدود بلاد الخطا (أي نواحي منشوريا الحالية) مسيرة خمسة أشهر، هذا هو طول هذه المملكة، وفي هذه المملكة من الأنهار الكثيرة المشهورة، سيحون، وجيحون، وطونا (أي الدانوب)، وإيتل، وباین، وتن، وطرلو، فمن سيحون إلى طونا مسيرة أربعة أشهر، وبين سيحون وجيحون خمسة عشر يوماً، ومن جيحون إلى باين خمسة عشر يوماً، ومن باين إلى إيتيل عشرة أيام، ومن إيتيل إلى تن شهر واحد، ومن تن إلى طرلو عشرة أيام، ومن طرلو إلى طونا شهر واحد، ويقلب جيحون وإتيل إلى بحر القلزم وسيحون منهي إلى مقصبة ورمل تحت مدينة جند بثلاثة أيام فنقلب هناك، وتأتي الأنهر المذكورة تقلب إلى بحر عمان، وهذه السبعة أنهر في هذه المملكة، ويتصل منها إلى إقليم ما وراء النهر سيحون وجيحون».

# الجركس والروس واللاص

سلاطينها وأمراءها منهم منذ رغب الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل في مشترى مماليك القبجاق، ثم انتقل الملك إليهم».

#### شعب البشكير

بعد ذلك، يحدثنا العمري عن شعب تركي شمالي تقع أراضيه في أقصى شمال هذه المملكة، وهو يعني على الأرجح شعب البشكير، حيث يصفه بقوله: «ينضم إلى جناح هذا السلطان قوم من الترك في نهاية الشمال من حدوده، وهم في جهد من قش، لحدما لأنهم ليسوا أهل حاضرة لهم زرع، وشدة البرد تهلك مواشيهم، وهم همج رعاغ لا لهم مسكة بدين، ولا رزانة في عقل، وهم لشدة ما بهم من سوء الحال إذا وجد أحدهم لهما سلقه ولم ينضجه، وشرب مرقه، وترك اللحم لياكله مرة أخرى، ثم يجمع العظام، ويعاود سلقها مرة أخرى، ويشرب مرقتها، وقس على هذا بقية عيشهم».

وينقل العمري عن تاجر جلود يدعى عبد

<sup>[1]</sup> حفلت المصادر الجغرافية العربية بالكثير من النصوص الرحلية

<sup>[2]</sup> وينقل العمري عن تاجر جلود يدعى عبد